الأهرام

المصدر: الخليج

التاريخ: ١٩ فبراير ٢٠٠٥

اغتيال الحريري جريمة استراتيجية

هل دمشق غبيّة لدرجة لا تدرك معها ضخامة ردة الفعل السياسية والشعبية، محليا وإقليميا ودولياً، التي ستنشأ عن هذا الحدث الجلل؟ ما هي مصلحة دمشق في تفجير الوضع الداخلي اللبناني وارتداده بذيوله عليها؟

د. عصام نعمان

ثمة جريمة منظمة وقعت ظهر يوم الاثنين 2005/2/14. الجريمة استهدفت رجلاً حجمه اكبر من وطنه لبنان، ودوره يغطي المنطقة كلها ويفيض عنها الى العالم الأرحب. رجل هذه مواصفاته لا يمكن أن تكون الغاية من وراء اغتياله محلية وحسب. الغاية يجب ان تعادل حجم الرجل. اذاً هي جريمة استراتيجية، بعيدة المدى، متعددة الأغراض والتداعيات. لم يكن عبد الحليم خدام مغاليا عندما قال إنها بمثابة زلزال. هل كان يوحي بأن ارتداداتها ستشمل بلده سوريا؟

رفيق الحريري كان رجل سوريا وخصمها في آن. لولاها لما بقي على رأس الحكومات اللبنانية المتعاقبة منذ 1992 ولغاية 2004. لكنه لم يكن مشروعاً سورياً. كان مشروعا شخصياً ومشروعاً إقليمياً تتقاطع في شخصه كما في حركته ودوره صداقات ومصالح ومشروعات عدة، لبنانية وإقليمية ودولية. كان الحريري بشخصه وقدراته وماله ومصالحه ونفوذه واتصالاته ومرتجياته وعلاقاته الشخصية والسياسية دولة افتراضية، لها كل المضامين السلطوية والاقتصادية ولا تنقصها إلا الشكليات الخارجية. وبطبيعة الحال، كان هذا الحجم الاستثنائي للرجل الكبير في البلد الصغير موضع حسد الكثيرين من الرؤساء والزعماء والسياسيين ورجال الأعمال في لبنان ودول المنطقة والعالم الأوسع.

لعل نظرة دمشق وغيرها الى الحريري بدأت تتغير بعد الاحتلال الأمريكي للعراق. فالرجل لم يخفِ ارتياحه لسقوط نظام صدام، كما لم يخف استعداده للتعاون مع التشكيل السياسي الجديد الذي أقامه الأمريكيون في بلاد الرافدين، ومراعاة التداعيات السياسية الناجمة عن وجود الأمريكيين في قلب المنطقة. مرونة الحريري هذه أقلقت دمشق، ولعلها أقنعت فريقا من جهازها الحاكم بضرورة إقصائه عن السلطة.

لم تخفَ عن الحريري النيات المبيتة لخصومه. لعله استبقها، كما تردد لاحقا في أوساط قصر الاليزيه في باريس والبيت الأبيض في واشنطن، بمبادرة مع صديقه جاك شيراك ترمي الى استعجال خروج سوريا من لبنان بقرار من مجلس الأمن الدولي. شيراك تلقف رغبة الحريري بإيجابية، بعدما خيّب السوريون أمله بتعاون نفطي واقتصادي مجز مع بلاده، واستطاع إقناع بوش بتوليف القرار المطلوب وإمراره في مجلس الأمن.

ربما لم يكن الحريري يهدف، باستصدار هذا القرار، الى الانقلاب على حلفائه السوريين بل الاستجابة لمتغيرات المرحلة الجديدة إقليميا والإفادة منها محليا لتكبير حجمه وضمان هامش أوسع لحركته ونفوذه. غير أن السوريين انزعجوا منه لأن تصرفه المتفرد ادخل الأمريكيين على الخط ومكّنهم تاليا من الاستفادة من عداء دفين يكنه بعض اللبنانيين لسوريا من اجل تطويقها والضغط عليها من الغرب بينما يضغطون هم عليها مباشرة من الشرق.

إذ وجدت دمشق نفسها في هذا المأزق، بادرت الى شن هجوم سياسي معاكس تمثّل في تمديد ولاية رئيس الجمهورية اميل لحود وإقصاء الحريري وحلفائه عن السلطة. وإزاء بروز استحقاق الانتخابات النيابية واحتمال خسارة حلفائها الأكثرية التي يتمتعون بها في البرلمان، بادرت دمشق الى تنفيس الاحتقان المتصاعد ضدها بتوجيه حكومة عمر كرامي الى وضع قانون للانتخاب يلبي مطالب خصومها، آملة ان يشكّل ذلك أرضية لتسوية سياسية يمتنع

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

بموجبها بعض الزعماء السياسيين، أمثال الحريري ووليد جنبلاط ونسيب لحود وبطرس حرب، عن التحالف مع المعارضة المسيحية المعادية لها. غير ان محاولة دمشق وحلفائها المحليين لم تنجح إلا مع الحريري الذي امتنع عن الانضمام الى تجمع «البريستول» المعارض، إنما بقي مؤيدا له في مطالبه الأساسية.

في ذروة هذا التجاذب والاصطفاف وتصاعد السخط على ممارسات أجهزة المخابرات السورية وحليفتها اللبنانية، وبعدما وضع مجلس النواب يده على مشروع قانون الانتخاب وباشر مناقشته، جرى اغتيال الحريري، فهل كانت دمشق تقف وراء هذه الجريمة النكراء؟

يصعب، وسط ملابسات الحدث المفجع وظروفه، تحديد الفاعل. غير انه يمكن بالتأكيد تحديد المستفيد او المستفيدين من تغييب الحريري في هذه المرحلة. ظاهر الحال يشير الى سوريا بإصبع الاتهام، فالحريري حليف المعارضة المعادية لها في الداخل، وصديق شيراك وبوش المناوئين لها في الخارج والداخل معا. ولكن، هل دمشق غبية لدرجة لا تدرك معها ضخامة ردة الفعل السياسية والشعبية، محليا وإقليميا ودوليا، التي ستنشأ عن هذا الحدث الجلل؟ ما هي مصلحة دمشق في تفجير الوضع الداخلي اللبناني وارتداده بذيوله عليها وهي التي تجهد وتجتهد لإقناع أمريكا وأوروبا بجدوى العودة الى طاولة المفاوضات مع «إسرائيل» دونما شروط مسبقة؟ وهل يبقى الاقتصاد السوري بمنأى عن النتائج الوخيمة لتدمير الاقتصاد اللبناني إذا ما تفجرت من جديد حرب أهلية في لبنان؟

المنطق السليم يشير الى أن الخسائر التي تتكبدها سوريا من جراء تغييب الحريري تفوق مرات عدة المكاسب التي يمكن أن تنشأ عنه. كثيرون من الخبراء، حتى في إسرائيل، يرون الأمر نفسه. ففي صحيفة «معاريف» كتب البروفيسور إيال زيسر، رئيس قسم دراسات الشرق الأوسط في جامعة تل أبيب، ان سوريا انتهجت مؤخرا خطا تصالحيا وأبدت استعدادها للحديث مع ألد أعدائها في الساحة اللبنانية. لذلك فإن «تصفية بهذا الصخب لرئيس وزراء لبنان السابق تتعارض بالتالي مع المصلحة السورية، فهي من شأنها ان تصعّد لا أن تلطف الضغوط على دمشق بسحب يديها من لبنان، علما ان زعزعة الاستقرار في لبنان لا تخدم السوريين إذ تنطوي على ما يمس بالمصالح السياسية والاقتصادية لدمشق في هذه الدولة».

في صحيفة «هآرتس» كتب مراسلها للشؤون العربية تسفي بارئيل ان اغتيال الحريري «وضع للمرة الأولى مشبوهين معهودين في الاغتيال السياسي في لبنان في لائحة اتهام واحدة: سوريا و«إسرائيل»». وبدا بارئيل متفهما الرأي القائل بأن «إسرائيل» «معنية بتقويض الاستقرار في لبنان كهدف استراتيجي ربما بقصد إشعال حرب أهلية جديدة يشارك فيها حزب الله (...) فتأمل «إسرائيل» بذلك إخراجه من النشاط داخل المناطق الفلسطينية».

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

هذه التقديرات الموضوعية في تحديد الجهة المستفيدة من اغتيال الحريري تدفع المراقب الحصيف الى الاعتقاد بأن جهازا «إسرائيليا» او جماعة إرهابية، مموهة بشعارات إسلامية أصولية، مرتبطة بوكالة الاستخبارات الأمريكية هي الجهة التي نفذت عملية الاغتيال. كل ذلك بقصد خلق موجة تسونامي من الضغط النفسي والسياسي العارم تجرف الوجود السوري في لبنان وتهدد بتداعياتها النظام السوزي نفسه في دمشق. اجل، انه تدبير إجرامي استراتيجي له أغراض بعيدة المدى، محليا وإقليميا، لا تتورع أمريكا معه وبإزاء مكاسبه التي تفوق خسائره، من التضحية بشخصية سياسية قيادية غير معادية لها وربما صديقة اذا كان من شأن ذلك خدمة أغراض استراتيجية بالغة الأهمية. أليس أمرا لافتا أن يسارع أرييل شارون، في يوم تشييع الحريري الى مثواه الأخير، وفي ذروة الغضب الجارف على سوريا من الجموع الشعبية والقيادات السياسية، بإعلان استعداد «اسرائيل» لمعاودة المفاوضات مع سوريا شريطة انسحابها من لبنان؟

أليس لافتا أيضا مسارعة وليم بيرنز، مساعد وزيرة الخارجية الامريكية لشؤون الشرق الاوسط، الى مساندة شارون بتصريحه في بيروت داعيا سوريا الى القيام بسحب فوري لقواتها من لبنان؟

غير ان مفارقة أخرى لافتة ترافق كل هذه الأحداث والمواقف والفواجع التي يضج بها المشهد اللبناني وتنعكس من ثم على المشهد الإقليمي. انها حالة العداء الجارف في صفوف الناس لسياسة سوريا وبالتالي لوجودها في لبنان. ما من احد مستعد للاقتناع بأن لا مصلحة لسوريا في تصفية الحريري وان اغتياله يستهدفها في مصالحها الأساسية كما يستهدف لبنان. ان أغلبية اللبنانيين مصرة، وسط حالة الغضب والحزن وبسبب من التجارب المرة مع أجهزة المخابرات السورية وتدخلاتها السافرة والمفسدة في الشؤون اللبنانية، على أن تدفع سوريا ثمن اغتيال الحريري. مثلها تريد فرنسا وأمريكا ولن تدعا الفرصة تفوتهما.

هل تدفع سوريا الثمن، كيف، ومتى؟ هذا هو السؤال.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية